درست الاَّ بقايا اسطر سمح الدهر بها ثم محاها

وكذلك النظامية لم ندرك نحن ولا آباؤنا حجرًا من احجارها ومن رأى محلها اليوم اخذتهُ الحيرة وذهب بهِ العجب كل مذهب . . . . انتهى محمد كردعلي

[المقتطف] اطَّلعنا على الرثاء الذي انشاز اليهِ حضرة الكاتب وهو لاحد ادباء بغداد وفضلائها وممَّا قالهُ فيهِ

قوَّضَ الدهر بالخراب عمادي ورمتني يداهُ بالانكادِ
كم انادي وليس لي من مجيبٍ واخراباهُ جهرةً كم انادي
طالما رفرفت من العلم رايا ت تخار مني على بغدادِ
طالما طاولت ذرى القمم الشمِّ م حصوني بفضلها المستجادِ
كنت في العلم روضة باكرت از هارها الغر بالعهاد الغوادي
كم رنت بي مناظر العلم حتى كنتُ منها بها مكان السوادِ
والغزاليُّ سائلٌ وابا اسحقَ م عمَّا حويتُ من ارشادِ
قد رمتني صواعق الدهر فاعتد م بنائي وصرتُ بعض الوهادِ

والمرثاة طويلة مفجعة ولكن ما تنع الرثاء وماجدوى البكاء وليس في الزوراء رجال تنهض بهم هممهم الى مناصبة الافساد ومجاذبة الاصلاح

توما رَيْت واسعاد المجرمين

سبقت منا الاشارة في مقالة (اصلاح السجون) الى عزمنا على الحاقها بتتمتها (اسعاد المجرمين) . وقد انصرف الهمُّ منذ ذلك الحين الى مسائل اخرى لم تكن في البال حتى وقع الينا لايامٍ قليلة كلامٌ من احد الالبَّاء الاكارم في حديثٍ عن منافع التاريخ قال فيهِ " ان اشدَّ ما أرى بلادنا في حاجةٍ اليهِ اليوم من ابواب التاريخ هو تراجم مشاهير الارض الذين قاموا في مختلف البلدان فرفعوا منار الانسانية في كشف حقيقةٍ او اصلاح حال " فانهض هذا القول همتنا ونبهنا الى انجاز ما وعدنا بهِ في تلك المقالة آسفين على الامهال وقلنا هو خيرٌ على كل حال من الاهمال — :

مهما يكن من امر النجاح في اصلاح حال سكان السجون وهم وراء تلك الاسوار فلا يزالون في حاجةٍ الى ذرائع توصلهم بما انقطع من ثقة الناس بهم بعد قضاء ايام العقاب .

نعم ينطلق السجين وينطلق معهُ الامل محتدماً في النشاط متشوقاً الى العمل ولكنهُ متى شاهد الوجوه منقبضة منهُ معرضةً عنهُ والبوليس واقف لهُ بالمرصاد يحذّر القوم من امرهِ وينذرهم بشرّهِ وفأحرِ بتلك الحال ان تعيدهُ الى مواقف اليأس

كان في مقدّمة الذين نبهتهم الاقدار الى هذا البؤس الشديد ووطنوا النفس على دفعهِ وتلافيهِ توما رَيْت رجل قام في اوائل القرن المنصرم من صنّاع مانشستر الماكين واندفع في ذلك المسعى الجليل اندفاعاً يعزّ فيهِ المثيل كما سترى

لم يكن هذا الرجل من ذوي الخطط والمراتب ولا من اهل الوجاهة في هيئة الاجتماع او من ارباب الثروة فتبلغهُ المرام انما كانت سعتهُ في قلبٍ يسع بلايا السجين المسكين وصدرٍ رحب بكل ذليلٍ . وما نشأ من عشاق الصحف والاسفار ولا أُلِفَ معاهد العلم او وقف في مشاهد العرفان مما يدلُّك على ان مجرّد حشو الدماغ بقضايا معدودة من العلوم لا تكفل للدارس ترقي نفسهِ مراقي الكمالات الانسانية انما رضع من امهِ لبان الصلاح والاحسان غذيت بهِ نفسهُ فبلغت طورها من القوة والنماء

الاّ انهُ بعد وفاة والدتهِ الصالحة تُرك صبيًّا وحيدًا فأُلقي الى ايدي الزمان العوبةً تصرفهُ حدثانهُ كالكرة امام الصولجان حتى ذاق منها الحلوَ والمرّ . ولما لقي من عشرائهِ الصنّاع ما ما يعهد فيهم من احوال السفالة والشرّ لم تعد نفسهُ تطيق تلك الموبقات فتنبّه ما كمن فيها من بذار تلك التربية الصالحة القديمة حتى هاجت في صدرهِ هوائج النخوة وشرف الذات فتنكّب عن مسالك اولئك الرفاق وعدل الى لقاء اهل الادب والصلاح

ولما بلغ اشدّهُ دخل صانعاً في احد مسابك مانشستر باجرة خمسة شلينات في الاسبوع ولما كان من شبان الثبات والنزاهة والاقدام أبت نفسهُ الاّ الجد ومصارعة الايام حتى اصبح في ذلك المسبك المقدم المعوَّل عليهِ

واول غرض مالت نفسهُ النبيلة اليهِ اسعاد اهل الجرائم والذنوب ومعاونتهم على وجود العمل الشريف وذلك من ابعد المطامع منالاً واقربها الى المستحيل واشدُّ ما يحمل النفس على اليأس والقنوط . فان المجرم حين انتهاء مدة سجنهِ لا يتأتى لهُ العود الى محلهِ السابق الاّ في النادر وذلك لما قام في نفوس مستخدميهِ من اعتقاد رسوخ الشرّ فيهِ فضلاً عمّا زادهُ السجن من رذائلهِ ولكن الحازم الهمام لا يزيدهُ بعد المطلب الاّ اقداماً بدل الاحجام

وكانت فاتحة اعمالهِ الخيريّة في اسعاد المجرمين ان أتى المسبك ذات يوم رجل كان قد أُخذ ببعض الجرائم ولما سئل رَيْت عنهُ لم يكن يعلم من امرهِ شيئًا الاّ انهُ في خلال ساعات

العمل استطلع طلع حالهِ فتحقّق الشبهة فيهِ . غير ان الرجل ابدى في حكاية حالهِ اصدق علائم الندامة والاسف ووعد بدموع الحزن الاّ يعود الى سابق شرّهِ وان يمحو ما لطّخ بدمن آثار الخزي والعار . فنقل رَيْت الواقع الى ارباب المسبك ووضع عشرين جنيهًا ضمانةً على دوام استقامتهِ في الاستقبال فقرّروا تثبيتهُ في العمل

غير انهُ لما عُدَّ العمّال غداة ذلك اليوم لم يكن ذلك الشقيُّ المسكين بينهم وذلك لانهُ لم يكن قد بلغهُ قرار ارجاعهِ الى العمل فأُرسل الى مبيتهِ رسولٌ فلم يجدهُ اذ كان قد حزم امتعتهُ وراح بهيم على وجههِ في عرض الارض . وبعد ان علم رَيْت بوجهة انطلاقهِ انطلق يعدو وراءهُ فادركهُ على امد عدة اميال من مانشستر وشاهدهُ جالسًا على قارعة الطريق منكسر القلب كئيب النفس كاسف البال منقطع الامل من دنياهُ فرفعهُ بيمينهِ وبشّرهُ بقرار ارجاعهِ الى عملهِ فانتعشت قواهُ وعاش رجاؤهُ فعادا معًا ودخلا الى المعمل وقد برهنت الايام على صدق وعدهِ وخلوص توبتهِ وندامتهِ

فهذه الحادثة قوّت آمال رَيْت وشدّدت عزائمهُ في مسعاهُ الكريم وايدت لهُ ما تفعل المؤاساة والانعطاف في انتشال امثال هذا المجرم من اعماق التعاسة والذل الى ساحة العمل وبجبوحة الامل . وكان يقول ان من الخطإ الفاضح قطع الامل من ارتداد هؤلاء البائسين التعساء . وان الاخلق بكلّ من يدعي الصلاح ان يمدّ اليهم يمين المعونة والاسعاد ويأخذهم باسباب الشفقة والحنان حتى يعودوا الى ميدان النشاط والراحة والاطمئنان . وما زالت هذه المسائل تحوم على خاطرهِ وتجول في صدرهِ حتى صارت غرض حياتهِ الاقصى

وكان ما كنّا في جوار احد السجون فكان يطلب اولاً الدخول الى المجرمين فلم يكن ينال الاّ الصدَّ والردَّ . وبعد ان لبث على ذلك زمنًا غير يسير بلغهُ اتفاقًا ان والد احد زملائهِ في المسبك بوّاب في السجن فتوسط لهُ في ادراك مبتغاهُ وأُذن لهُ في ملازمة الحضور الى احدى الجفلات الدينية ايام الاحاد . على انهُ لم يكن يؤذن لهُ الى تلك الساعة في ان ينفرد باحد المساجين ولكنهُ صبر على مضض الانتظار صبر الكرام

وبينما كان عائدًا من السجن يومًا من ايام الآحاد استوقفهُ الخادم الديني مدير ذلك الاجتماع وطلب منهُ عملاً لاحد السجناء الذين انتهت مدة عقابهم وهم في مزيد الرغبة في العمل . فاجابهُ رَيْت بالايجاب ووعدهُ ببذل المجهود في ما سأل ونال عملاً لذلك البائس الذليل

فاباح لهُ الحاكم حينئذٍ الدخول الى السجون ومحادثة ايّ شاء من المجرمين فاخذ رَيْت يبذل لهم النصح والارشاد ويراسل اهاليهم في منازلهم مبديًا ادلّة الصداقة والاحسان . وكان

يترقب المتهمين يوم اطلاقهم ويتعمَّد ملاقاتهم ويعود بهم الى منازلهم ويردُّهم الى عيالهم ويحسن اليهم بما استطاع من اجرته اليوميَّة ثم يسعى جيدهُ في ان يقودهم الى ابواب العمل وسبل الرزق الحلال

ولم تكن مساعيهِ تخيب في غالب الامر لانهُ اكتسب ثقة اصحاب الاعمال بامانتهِ وصدقهِ وحكمتهِ فكانوا يلبُّون طلبهُ باستخدام من يشاء من المجرمين المرتدين حتى انهُ كان يبذل الضمانات المالية المجموعة من اجورهِ الاسبوعية حين الاقتضاء

ولبث بضعة اعوام على هذا المسعى وهو لا يفارق مسبحهُ عاملاً مجتهدًا بما استطاع من الهدو وتواضع النفس يتحامى الاشتهار والافتخار حتى وجد اعمالاً لمئات من اولئك المجرمين البائسين

حكى اصدقاؤهُ عنهُ ان احد المجرمين بعد ان قضى مدة عقابهِ في الاشغال الشاقَّة أُطلق سراحهُ واصحبهُ احد القسوس برقيم توصية واعيد الى ماتشتر فلم يُصب اولاً لهُ عملاً سوى الكناسة في الطريق ولكن ريت سعى لرفاقهِ الى عمل مصلح في الطريق وبعد ان ابدى من حسن المسلك ما ابدى ادخلهُ بعض مدارس الليل وغيرها فاظهر من مناقب المروَّة والرغبة في التعلم والتحصيل ما اهَّلهُ الى رتبة معلم حتى نال لدى رئيس المدرسة احسن الحظوى والالتفات وما زال يرقى بالجد والاقدام حتى سيم قسيسًا

وبعد ان اقام ريت على مثل هذه المفاخر والمآثر الكريمة اعوامًا مالت اليهِ ابصار ذوي المكانات العليا من الحكام ودار ذكرهُ في المجالس والتقريرات الرسمية ومما جاء عنهُ لاحدهم في تقرير سنوي عن (حال المجرمين) قولهُ "... ولكي اظهر الحدَّ الذي بلغهُ احسان هذا الرجل الصالح المسكين والنجاح التي تكلَّلت بهِ مساعيهِ اقرر انهُ لم ينقض متوسط من اصلحهم من المجرمين بفضلهِ واحسانهِ عن ستة وتسعين في المئة ومما يثير الخاطر بهجة وحبورًا ان نرى تلك الثقة التي فاز بها هذا الانسان من قبل المجرمين الاشقياء ولم تكن الاَّ جزاء اسلوبهِ الصالح الساذج الابوي العاري عن كل ما يشوبهُ من شوائب العجب والمنّ والافتخار"

ولم تقصّر مساعيهِ على وجود الاعمال لاولئك الاذلاَّء المساكين بل انهُ كان يقرض من لم يصب عملاً ما نالت يدهُ من المال او يسعى في اكتتاب سري بين بعض اصدقائهِ مساعدة لبعضهم على النزوح وطلب الارزاق فبلغ عدد من انجدهم في هذا السبيل نحو الالف حتى ان بعض هؤلاء المجرمين كانوا يبذلون لهُ المساعدة في اعمالهِ الخيرية إما بتهيئة اعمالٍ لاخوانهم او باكتتاب مالي على ما اسلفنا ذكرهُ . وقد كان يرد لهُ من بعض اولئك المجرمين النازحين مساعدات مصحوبة برسائل الشكر والحب من ذلك رسالة وجيزة وردتهُ من احدهم يقول

فيها ان ما احرزتهُ من مطالب النجاح لم يكن اساسهُ الاَّ حبك الوالدي وعونك الذي لن تمحي آثارهُ ولن ينسى تذكارهُ . الى آخر ما هناك من عبارات الشكر والوداد

والذي يقضي على القارىء بالعجب العجاب من امر هذا المحسن العظيم انهُ لم يكن ينقطع عن عملهِ اليومي مع كل هذه الاعمال العظيمة الشاغلة فكان ينهض الى مسبكهِ الساعة ٥ صباحًا ولا يفارقهُ قبل الساعة ٦ ليلاً حتى لم يكن يبقى لهُ لاجل القيام بتلك الاعمال الخيرية سوى ما بقي من ساعات مسائهِ وايام العطلة والآحاد فكان يُشاهَد في السجون والملاجئ يعزي المسجونين ويؤاسي المجرمين وبقي على عملهِ هذا المبرور الى الثالثة والستين من العمر حين مالت شمس حياتهِ الى المغيب وهو لم يدخر شيئًا من المال وما زاد عن قوتهِ اليومي كان ينفقهُ في وجوه الخير على ما مرَّ في سياق الكلام حتى كان في كثير من الايام يُلمُّ بهِ العوز والضيق اذ كان من مبدإهِ أن لا يدخر فلسًا الى غدهِ اسـاكًا عن معوزٍ في يومهِ

ومن غرائب حالهِ انهُ لما علمت الحكومة الانكليزية قيمة خدمهِ هذه وفضلهِ على البلاد عرضت عليهِ رتبة مفتش على السجون براتب ٨٠٠ جنيه سنويًا فرفض المنصب والتقدمة جميعًا قائلاً " اذا صرتُ مامورًا للحكومة اخشى ان تقعد بي الهمَّة عن تلك المهمَّة فلا اعود مساعد المجرمين وخليل البائسين "

على ان اهل مانشستر حين رأوا منهُ هذه الشهامة النادرة المثال نهضت بهم عواطف الشكر وعينوا لهُ سنويًا ١٨٢ جنيهًا جمعوها بالاشتراك ولم يكن المبلغ الاَّ عشر العشر مما اقتصدتهُ بمساعيهِ خزينة البلاد . وكان ممن عرف لهُ قدر هذا الجليل والصنع الجميل احد المصورين فاهدى اليهِ رسمًا كتب عليهِ (السامري الصالح) وقد نصب هذا الرسم في منتدى مانشستر العام على ان ريت لم يقف عند هذا الحد بل ازداد همة واقدامًا فاخذ يطوف البلاد نظير هَوَرد يزور السجون ويتنقد الملاجئ ومدارس الفقراء الصناعية وسائر الامكنة المتعلقة بمقاصدهِ الخيرية . وكان من اجلّ رغائبهِ ان يهذب اولاد المساكين ويربيهم على العمل الشريف فيرد عنهم آفات البطالة وما تجرهُ من البلايا والويلات فيقلل بذلك عدد المجرمين . فقامت بمساعيهِ مدارس الفقراء ولم يأل جهدًا حتى جعل التعليم فيها الزاميًا يقين ان هذا الالزام من افعل الذرائع في تخفيف الجرائم وتقليل الفقر

وما عدا هذه المدارس نقد انشأ مدارس صناعية وبنوكًا لاقتصاد المجرمين ومعامل خيرية لتشغيلهم . وعلى الجملة فحيثما رأت عينهُ وجهًا للخير سعت قدمهُ نحوهُ ومدَّت اليهِ يدهُ . ولم تفتر همتهُ حتى بلغ الخامسة والثمانين فبلغ الضعف منهُ غاية الحدّ وقضى في الرابع عشر من ابريل

(نيسان) سنة ١٨٧٥

هذا ولا نعلم ما يقول اهل الانانية في مثل هذا البطل الغيري الكريم والمحسن الخيري العظيم ولا ندري اي ناموس خرق في شرعهم غير ناموس (الانانية) هادم العمران وعار الانسانية فلم يبقَ الاَّ ان يقولوا لعلهُ انانيٌّ ايضاً رام سدَّ عاطفة طمعاً بمدح الضمير . قلنا ان كان لمثل هذه الانانية هذا الاثر في النفع العام فهي خيرٌ من انانية محصورة في الذات وليس طما من أثرٍ غير اماتة العواطف والانسانية وتوبيخ الضمير متري قندلفت

اشارات الخطابة

قال بعضهم ان الخطيب الاشارات لغة الجسم وبدونها يفقد الخطيب المصقع قوتهُ ويبارى بمن هو اضعف منهُ ولكن كما ان بعض النساء العاطلات (الخاليات من الزينة) يظهرن ابرع جمالاً منهنَّ مزيناتٍ كذلك بعض الخطباء تُعجب بهم ولو لم يُتبعوا كلامهم بشيءٍ من الاشارات

وقد وجدت الاشارات قبلما وجدت الالفاظ واللغة ودليلنا على ذلك ان الاطفال يدلُّون على مقاصدهم بها قبل معرفتهم اسماء الاشياء . قال احد معلمي الخطابة المشاهير اذا شئت ان تحسن تعلُّم الاشارات الخطابيَّة فلاحظ حركات الشيوخ وصغار الاولاد في احاديثهم وتقلَّدها في خطبك . وكان المصريون يرمزون الى كلمة لغة في كتاباتهم الهيروغليفية بصورة يد موضوعة تحت لسان وربما قصدوا بذلك وجوب مرافقة الكلام بالاشارات

وقفة الخطيب . لتكن المسافة بين رجليك عشرة سنتمترات وليكن وضعهما بحيث انك اذا اخَّرت الرجل المتقدمة على الخط الذي هي ممتدَّة فيهِ يلتقي الكعبان وتكوّنان زاوية انفراجها ٤٥ درجة

ليكن معظم ثقل الجسم على القدم المتقدمة كلها اي على كعبها واصابعها معاً

وجِّه نظرك الى الحاضرين امامك ولا تجمِّد رأسك او كتفيك او جذعك لئلاَّ تظهر متكبراً او متصنعاً فالناس لا تحبُّ سماع من هو معتدٌّ بنفسهِ مترفِّعٌ عنهم

بعد ما تقف في مكانك مرَّ بنظرك على الحضور ثم وجههُ الى ابعد فريق منهم واستعدَّ للانحناء اذا كان لهُ داعٍ

الانحناء . جرت العادة في المجتمعات العلمية والادبية ان يحني المتكلم رأسهُ امام الحضور قبل الشروع في الخطابة واذا كان في المجتمع شخص ممتاز لهُ علاقة شديدة بتلك الحفلة كحاكم او رئيس مدرسة فعلى الخطيب ان يحني مرتين مرة لهُ ومرة لبقية الحضور وان يراعي الامور الآتية